أنت تدعينى لرحلة من مثل ما كان فى سالف الأيام ذراعاً إلى ذراع على الطريق ؟

أنت تسألينى : متى أراك إلى جانبى كعهد مضى لا يعنيكَ من أمر شيء إلا أن تكون لى وأكون ... ؟

وأنت إلى كل أولئك تريدين لى المجد والشهرة والصيت البعيد ؟

لقد أذكرتنى ما كان من أمرى وأمرك يا عزيزتى، وأيقظتِ فى نفسى ما كان راقداً من زمان ؛ وعجتنى إلى ذكرى اللهو والهوى والصبابة وسعادة الحب فى سالف الأيام ، حين لم يكن فى الدنيا غيرى وغيرك ، ولم يكن الزمان إلا اللحظة التى نعيش فيها لا ماضىَ له ولا آت !

ما كان أسعدنى بهذا الماضى !

فماذا أجدى علىّ ما نلت من دنياى بعد هذا الجهاد ؟

ها هنا شيء وشى . فمنذا يهدينى بينهما سبيل الرشاد ؟

* * *

دعينى أنام !

إن عينىّ لم تذوقا طعم الكرى منذ سنوات وسنوات ...

دعينى دعينى ... إننى وجدت نفسى هنا ... !

ما المجد ، والشهرة ، والصوت المسموع ، إلا وهم من الوهم وحيلة من الحيلة لتفسد على السعيد دنياه !

لا تدعينى يا عزيزتى بعدُ إلى الجهاد والعمل . إن بى حنيناً إلى هذا الفراش الدافئ بعد طول السرى وجهد السهر وكدّ الطريق ... !

دعينى أنام لعلى أبلغ من السعادة فى سِنةٍ حالمةٍ ما لا مبلغ إليه فى يقظة الحياة !

بل دعينى يا عزيزتى أستيقظ من ذلك الحلم الطويل الذى ضرب على عينىّ بضع عشرة سنة أهذى باسم الفن والأدب والشهرة والجاه والصيت

هذه هى الحياة ، هذه هى الدنيا ، كل ما عدا ذلك خداع وتلبيس ووهم من الأوهام !

دعينى ، دعينى !

« شبرا »

محمد سعيد العريان

دراســـات فى الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

موضوع الأدب

الإنسان إما أن يبين عن حقائق خارجة عن نفسه لا يصلها بخياله ولا يصبغها بعاطفته ، وإما أن يعبّر عن حقائق امتزج بها الخيال ولوّنتها العاطفة ، أو عن خيالات مخترعة ليست صورة من حقائق العالم

إذا قال الجغرافى فى وصف أرض : فيها أودية عميقة بين جبال عالية ، فقد أبان عن حقيقة رآها أو سمعها ؛ لم يصلها بالعاطفة فيبيّن إعجابه بها أو خوفه منها أو انبساطه أو انقباضه لمرآها أو ما تخيله حين شاهدها

وإذا قال كاتب فى وصف هذه الأرض : « تهولك بها أودية عميقة تطلّ عليها جبال شامخة عاتية يحلق الطرف دون ذُراها ». فقد أبان عن الحقيقة مشوبة بما شعر هو به من رهبة وما تخيّل من إطلال الجبال على الأودية ، وتحليق البصر دون قممها

وكذلك يقول الجغرافى : « صحراء منبسطة مستوية طرقها متشابهة ، شديدة الحر ، كثيرة الرياح » فينقل إلى السامع صورة الصحراء لم تغيّرها عاطفته ، ولم يزد عليها خياله

ويقول الشاعر[1] فى وصف هذه الصحراء :

وتجهل كاطّراد السيف محتجز ... عن الأدلاّء مسجور الصياخيد

تمشى الرياح به حسرى مولّهة ... حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد

موقّف المتن لا تمضى السبيل به ... إلا التخلل ريثا بعد تجهيد

فتراه قد أفاض على الصورة الطبيعية ألواناً من شعوره وتخيله

وانظر الفرق بين فلكىّ يتكلم عن الشمس طلوعها وغروبها ودورتها السنوية ، وعن القمر ومنازله ، والنجوم وحُبُكها ؛ يصف الحقيقة كما هى على قدر إدراكه، وبين من يقول مثلا :

منع البقاءَ تقلبُ الشمس ... وطلوعها من حيث لا تُمسى

وطلوعها حمراءَ صافية ... وغروبها صفراء كالورس

(١) هو مسلم بن الوليد

وقول الآخر :

فجأة أمّا إذا الليل جنّها فتخفى وأما بالنهار فتظهر
وقد انشقّ عنها ساطع الفجر فانجلى
دجى الليل وانجاب الحجاب المستّر
وألبس عُرض الأفق لوناً كأنه
على الأفق الشرقيّ ثوب معصفر. الخ[1]

وقول ابن الرومى :

إذا رنّقت شمسُ الأصيل ونفّضت
على الأفق الغربيّ ورسا مُذعذَعا
وودّعت الدنيا لتقضىَ نحبها وشول باق عمرها وتشعشعا
ولا حظت النُّوار وهى مريضة
وقد وضعت خدّاً على الأرض أضرعا. الخ

الفلكى يصف حوادث لا صلة لها بقلب الإنسان وخياله . والشعراء يصفون شعور الإنسان بفنائه على مر الزمان ، ويتخيلون فى طلوع الشمس وغروبها صوراً تخلع على الشمس شعور الإنسان وعاطفته .

* * *

تمثل نفسك تقرأ نظرية هندسية أو معادلة جبرية ثم تمثلها تقرأ قصيدة لشاعر نابغة أو خطبة لخطيب عظيم ؛ إنك حين تقرأ الهندسة أو الجبر لا تفرح ولا تحزن ، ولا تغضب ولا ترضى ، ولا تخاف ولا تأمن ، ولا تضحك ولا تبكى . ولكنك حين تقرأ القصيدة أو الخطبة لا تخلو نفسك من بعض هذه المعانى أو ما يشبهها.

وإذا قال طبيب : « إن مرض كذا منتشر فى كل بلد » فهذا خبر لا يعبر عن شىء من عواطف الطبيب بل يخبر عما هو كائن ، ولكن أبا العلاء المعرى حين قال :

ما خص مصرًا وبأوحدها بل كائن فى كل أرض وبا
أنبأنا اللب بلقيا الردى فالغوث من صحة ذاك النبأ

أراد أن يبين عما يحيط بالإنسان من الآفات ويعرب عن خوف الإنسان وحزنه فى هذه الحياة ، وإنما ذكر عموم الوباء وسيلة إلى الإبانة عن آلامه ومخاوفه

وهكذا يستطيع الناظر فى هذا الموضوع أن يوالى الأمثلة فى غير عسر .

* * *

(١) ديوان المعانى ج ١ ص ٣٧٩

كل ما أبان عن عاطفة أو خيال صلح أن يكون موضوعا للأدب ؛ وهو مادة الأديب يؤلف منها أدبه. ولكن من هذا البيان ما هو شائع بين الناس يشترك فيه الخاصة والعامة والصغار والكبار، فهذا لا يعد فى الأدب وإن اتصل بالعاطفة والخيال ؛ فلا بد من سمو الإدراك ، وجودة التصوير . لا بد من الصنعة أو الفن . لا يُعد الإنسان مصورا حتى يجيد التصوير ، ولا يعد نجارا كل من نجر خشبة أو دق مسمارا بل لابد أن تكون له صنعة لا يستطيعها كل من حاولها . كذلك ليس كل من عبّر عن عاطفة أديبا. لا ! حتى يكون فى بيانه إدراك يرفعه عن العامية والابتذال ، وصنعة تميزه عن الدهماء وتميزه باسم الكاتب أو الشاعر أو الخطيب الخ — حتى يأتى بكلام معجب يحس فيه سامعه أو قارئه إدراكا قياً ، وتصويراً بارعاً كما تُرى صنعة نجار فيُعرف أنها عمل لا يستطيعه كل من وجد الخشب وآلات النجارة .

الحزن — مثلا — عاطفة تبين بالوجوم والصياح ، والأنين والبكاء، والعبارة المتادة، والقصيدة. وكل هذه الدلالات تبين عن العاطفة ولكن لا يُعد من الأدب إلا القصيدة .

وكذلك الأمور النفسية الملونة بألوان النفس تملأ كلام العامة والخاصة ولكنها لا تحسب أدبا حتى ترتقى إلى مستوى الفن ، وفى هذا درجات تتوالى إلى حد الإعجاز .

الفرق بين الأدب والعلم

يتبين مما تقدم أن قضايا العلوم المحضة ليست مادة للأدب ؛ فإذا قلنا : زوايا المثلث تساوى زاويتين قائمتين ، أو الخط المستقيم أقصر خط بين نقطتين ، أو حاصل ضرب خارج القسمة فى المقسوم عليه يساوى المقسوم ؛ أو هذا الدواء ينفع لهذا المرض الخ فهى قضايا علمية ليست من موضوع الأدب فى شىء

ليست هذه القضايا من الأدب ولكن يجوز أن تدخل فيه لتكون مقدمة لغيرها أو للتشبيه بها أو نحو ذلك كما قال المعرى :

طرق العلا مجهولة فكأنها صم العدائد ما لها أجذار

وقوله :

الخلق من أربع مجمعة ماء ونار وتربة وهوا

والكتب العلمية ليست من مباحث الأدب إلا أن يخطر

الأديب إلى حسن البيان فيها والترتيب والتقسيم ووضوح الألفاظ فيجوز للفن أن يتناولها من هذه الناحية

فإذا اتحدت المسائل فى كتب علمية واختلفت أساليبها فقيل هذا الكتاب واضح العبارة ، صحيح الألفاظ ، جيد الأسلوب فهذا تقدير موصول بالفن يجعل الكتاب من هذه الناحية ذا صلة بالأدب . ويستخلص من اختلاف موضوعى العلم والأدب هذه الفروق بينهما :

١ — الأدب مرجعه نفس الإنسان ، والعلم مرجعه الطبيعة

٢ — فمقياس الأدب صدق التصوير لما فى النفس خطأ أم صواباً ، ومقياس العلم صدق الإدراك للحقائق الواقعة دون نظر إلى أثرها فى النفس

٣ — والأدب الإنسانى موضوعه الإنسان : سعادته وشقاؤه فى هذا العالم . والعلم يستوى عنده الإنسان والحيوان الأعجم والنبات والجماد . فالطبيعى يبحث فى قوانين الطبيعة السارية فى هذا العالم ، والحيوى يبحث عن قوانين الحياة فى الأجسام الحية ، والطبيب يشرّح الأجسام ليتبين تركيبها . وهم فى هذا البحث يتحرون الحقائق كما هى لا يبالون أن تكون فى الإنسان أو فى غيره.

وأما الانتفاع بنتائج العلوم فى إحياء الإنسان أو قتله وإسعاده أو إشقائه ، فهو أمر خارج عن موضوع العلم

٤ — والآراء والكتب العلمية تترك إذا تبين خطؤها أو كتب ما هو خير منها فلا يرجع إليها إنسان إلا إذا أراد أن يؤرخ العلم ؛ فلا تجد من يقرأ فى كتاب هندسة أو حساب قديم وقد كتب ما هو أحسن منه ؛ ولكن كتب الأدب تتضمن عواطف الإنسان فأيان اطلع القارئ فيها وجد عاطفة إنسانية تؤثر فى نفسه لا يضيرها الخطأ أو القدم . فنحن نقرأ اليوم شعر هومير وشعر امرىء القيس وغيرهما ، ونجد فيه من متعة النفس ما نجده فى الشعر الحديث

اختلاف المنشآت الأدبية

قد تبين أن مدار الأدب على العاطفة والخيال والأمور النفسية لا الحقائق الثابتة خارج النفس . وليست كل القطع الأدبية سواء فى ذلك ، بل تتفاوت قرباً من هذا المركز وبعداً . وأدخلها فى الأدب أقربها إلى المركز . وفى الأدب موضوعات يقل نصيبها من العاطفة والخيال حتى تنتهى إلى المحيط الذى يفصل الأدب عما سواه ، ويكاد يشك القارئ أنها من الأدب

ومن أجل ذلك اختلف النقاد فى شعراء من أئمة البيان كأبى تمام والبحترى والمتنبى وأبى العلاء . قال بعض النقاد : المتنبى وأبو تمام حكيمان وإنما الشاعر البحترى . ومال بعض النقاد إلى إخراج لزوميات المعرى من الشعر . والحق أن دواوين هؤلاء الشعراء جميعاً تحوى أدباً لا علماً ، ولكن حظها من العاطفة وعمل الخيال يختلف ؛ فتجد البحترى أكثر نصيباً من العاطفة والخيال فى جملة شعره ؛ وأبو العلاء فى لزومياته أقل حظاً منهما ولكنه لم يخرج عن دائرة الأدب . وأبو تمام والمتنبى بين عاطفة البحترى وحكمة أبى العلاء

وبهذا يفسر قول القدماء : « أعذب الشعر أكذبه » فالأكذب أدخل فى الخيال وأبعد عن الحقيقة . ولكن ينبغى ألا يخدعنا هذا القول ؛ فربما نجد الشعر القريب من الحقيقة والبعيد عن الخيال أعذب وأحب إلينا من شعر كثر خياله وبعد عن الحقيقة . وقد تبين العاطفة قوية واضحة حيث لا خيال كما يؤثر مرأى الطفل الحزين فى رائيه ، ويعجب المنظر الجميل شاهده ، وليس هناك إلا الحقيقة المؤثرة

أنظر قول كثير عزة :

خليلىّ ! هذا ربع عزة فاعقلا ... قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

لا تجد فيه مجازاً ولا استعارة ولكنه مثّل لك الشاعر واقفاً على دار عزة وقد خلت منها وهو يطلب إلى صاحبيه أن يعقلا ناقتيهما ليفرغا للبكاء معه . ليس فى هذا تخيل ولا صنعة ولكنه يكشف عن عاطفة محزونة ساذجة لها أثرها فى نفس الانسان

وانظر هذه الأبيات :

أقول لصاحبى والعيس تهوى ... بنا بين المنيفة فالضمار

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

ألا يا حبذا نفحات نجد ... وريّا روضه بعد القطار

وأهلك إذ يحلّ الحىّ نجداً ... وأنت على زمانك غيرُ زارى

ليال ينقضين وما شعرنا ... بأنصاف لهن ولا سراز

إنك تجد فى هذا الشعر الطبيعى الصادق الخالى من الكذب والخيال والإغراق من الإبانة عن العاطفة ما لا تجد فى شعر متكلف قد أغرب فيه الخيال وافتنّت فيه الصنعة

عبد الوهاب عزام